خمسة في سيارة

٣

جنيف وجمعية الامم

وقال قائل منهم : هيّا بنا الى جنيف فهي قريبة من البلدة التي نحن فيها (وكان الجلسة في آلنسي) وغداً نجتمع هناك عصبة الامم فيتاح لنا رؤية رجال اوقرت آذاننا اسماؤهم وتمتع النفس بمحاسن البحيرة وما يحيط بها من جبال.

فانطلقوا سيارتهم يستمين جنيف والحدود الفرنساوية تنتهي قبل وصولك اليها بنصف ساعة او اقل

ووقفت السيارة وجاء رجال الشرطة الافرنسيون فنظروا اليها وما زادوا ، والى بضع خطوات منهم رجال شرطة سويسرا فتقدم احدهم حيّا وسأل عن جوازات سفرنا فتقدم كل بجوازه حتى اذا جاء دور ساحبنا المصري نظر الشرطي الى جوازه وقال: هذا ناقص فليس عليه «تأشير» من السلطة السويسرية في بلادك تسمح لك بالمجيء الى سويسرا . قال: ولكنهم قالوا لنا في كل فنادق فرنسا ان لا حاجة بالسائح الى «تأشير» جوازه اذا كان في فرنسا . قال : انهم لا يعلمون ما يقولون ويضللون السياح النازلين عندهم. ان بيننا وبين الانكليز والفرنساويين اتفاقاً لا يجاز منه بطاقة توضع على جوازه المرور ولكن الحال ليست كذلك مع مصر . فهي تطلب « تأشيراً » على جوازات السويسريين ونحن نفعل فعلها مع المصريين . فاضطرب المصري وتضايق فانه لم يكن يحسب حساباً لهذه الصعوبة الطارئة ولا ادري يستطيع الكونت وحده او مع جماعته ان ينسى ودخل الرفقاء كلهم وسطاء في الامر فاكان لهذا الشرطي الا ان يتزحزح عن مكانه

قال له المصري : يا هذا اني قادم لاسكن يوماً او بعض يوم في جنيف ثم اعود فما هذا التشدد وأنا اعرف بعض رجالكم في مصر ويعرفونني وهم يقيمون عندنا على الرحب والسعة . وزاوده عن وجهه بسيطرة او سيجارتير فازداد تعبساً . ولاطفه السيدة الافرنسية وابتسمت لعلّها تحسن سحر الخاطر ان يفعل فيبتسم ويقال . فلم يزدد جهماً

وهمّ بتلقين امامه وخاطب رئيس الشرطة في جنيف بشرح له الحكاية ويقول انه نشأ في القاهرة السوداء فلم أجد اسم هذا الرجل وهو عليه سيماء كرام القوم

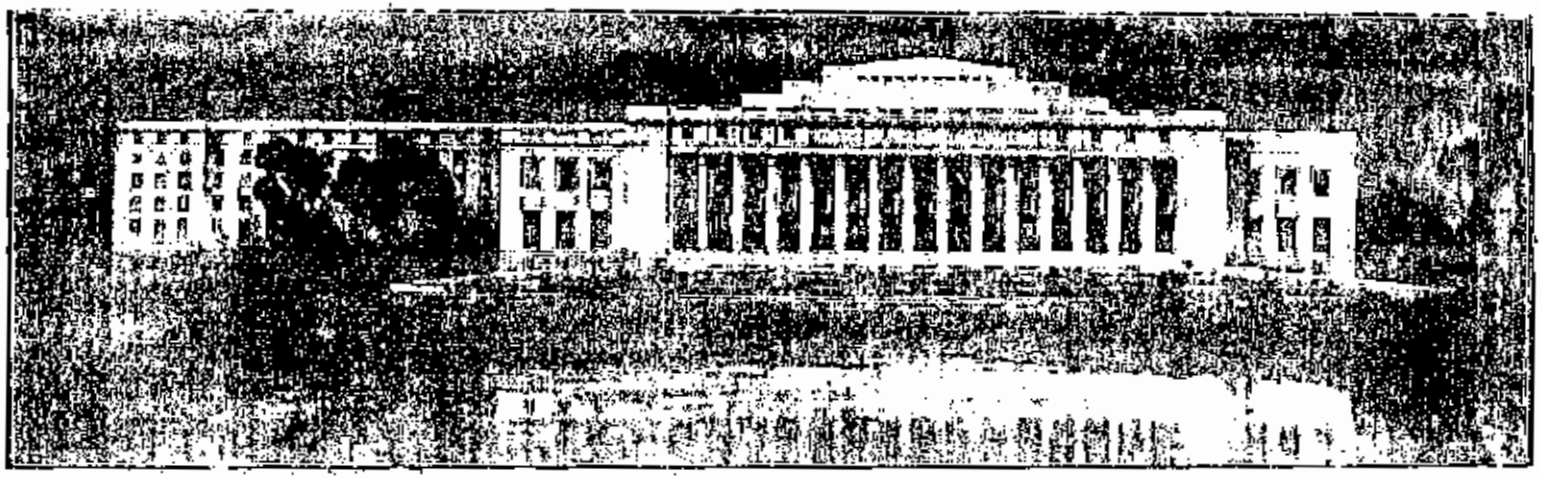

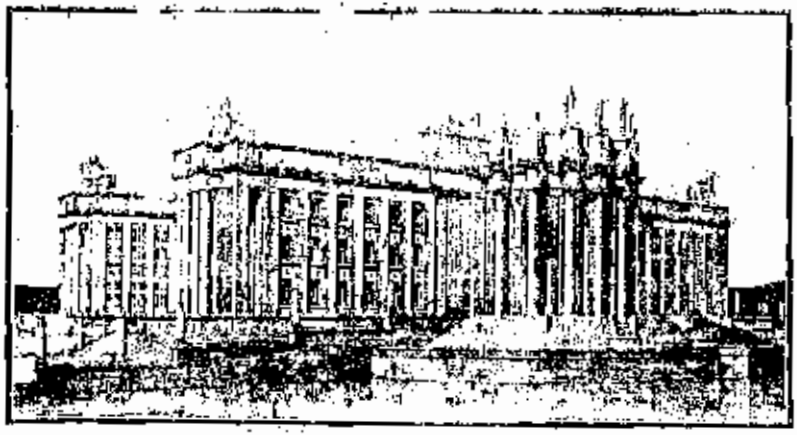

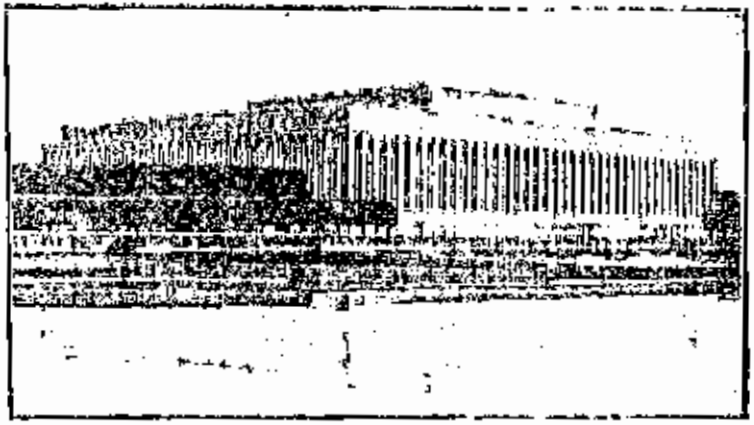

ثلاثة من الرسوم التي وضعت لدار جمعية الامم التي تراد اقامتها في جنيف وقد فاز الرسم الذي في اعلى هذه الصفحة

امام الصفحة ٢٩٦

فاجاب الرئيس : دعهُ يمرّ . فشكر القوم للشرطي حسن سعيه وخرج المصري منبطاً بشهادة « سيماء كرام القوم » وبخلو القائمة السوداء من اسمه

ودخلوا جنيف وكانت فنادقها تغص بالنازلين من شتى الشعوب من مشارق الارض ومغاربها . ومن يشاهد هذا الموسم في جنيف لا يعجب للحملة التي اثارتها البلجيك على الرئيس ولسن لتحملهُ على جعل مقر جمعية الامم في بروكسل لا في جنيف فانهُ اذا لم يكن من نفع لهذه الجمعية الا ترويج اسواق البلدة التي هي فيها لكان في ذلك الكفاية

وسار الرفقاء الخمسة في شوارع جنيف يتفرجون ولم يكونوا حديثي معرفة بها فان كلاً منهم يعرف جنيف قبل هذه الزيارة الا السيدة الافرنسية فكانوا يدلونها على ما يُرى

واذا نزعت البحيرة من جنيف فليس فيها ما يُرى

وهذه البحيرة فكاد تكون بحراً . فهي واسعة عميقة تلاطم امواجها وتثور مياهها مثل كبار البحور فكانت لهذه الاسباب لا تروق صاحبنا المصري

على ان كيان الاتحاد السويسري السياسي في اوربا جعل جنيف مهبطاً لطلاب الشأن السياسي حرية كان ام استبداداً فانت ترى في مشارب قهوتها المطالب بعرش مفقود والى جانبهِ فوضوي يطلب هدم ما بقي من عروش . تنظر هنا اميراً افقرتهُ الثورة في بلاده فجاء جنيف يؤمن على رأسه ، وتلمح هناك افاقاً سياسياً يروّج دعوة اغتهُ عن العمل

وكان مقعدهم في قهوة كان لينين لا يفارقها فسألوا الخادم عن الكرسي الذي كان يجلس عليهِ قال : تارة هنا وتارة هناك فمن مكثرت لينين وكثرته حتى يصح المثل الانكليزي ان الالفة تزيل الكلفة بل تمحو الاحترام وتدعو الى الازدراء

ولفت نظرهم اثرٌ مقام لجان جاك روسو . فهذا المكان ابن جنيف وموضع فخرها ومحل عزها . فسأل المصري رفيقه الانكليزي رأيه في « جان جاك » فقال : انهُ كان قذراً — اما قرأت كتاب اعترافه — وانا لا احب القذارة . ولا اظنهُ كان صريحاً مخلصاً عندما كتب هذا الكتاب

قال المصري : وانا لا احب كتابه « العقد الاجتماعي » فهو نظرية فاسدة يدفعها الناس كلهم الآن . على انهُ كان ذا اثر عظيم في الثورة الافرنسية فهو من معلمي هذه

الثورة. وكثير من رجالها — واشهرهم روبسبير — من عبّاده المخلصين. ثم مرّوا بالكاتدرائية المشهورة في جنيف. وهي بناء اقيم للكنيسة الكاثوليكية فاخذهُ بعد ذلك اتباع كلفن الواعظ البروتستاني المشهور وجعلوهُ مقرًّا لعبادتهم.

فتميزت السيدة الافرنسية غيظاً. قالت: ان المذهب البروتستاني قائم على البساطة والبعد عن الصور والتماثيل وما الى ذلك من آثار الفنون الجميلة. فهو مذهب جافّ لا يتفق في شيء مع ما في هذا البناء من زخرف ونقش وعظمة فن. فانك لا تفهم ان تقام العبادة في هذه الكاتدرائية الاّ من قساوسة يرتلون ويلبسون الثياب الموشاة بالذهب والفضة ويمثلون الآيات المقدسة تمثيلاً روائيًّا حتى تتشابه الامور فيستقيم للذوق السليم حكمه. وأما ان ترى المؤمنين جلوساً على الكراسي كالاصنام ويقوم راعيهم يتلو الآيات بصوت اقرع ويخطب القوم مواعظ وآيات غير موسيقية فشيء لا يليق بهذا المكان ومحله منازل شيدت خصيصاً لهذا الغرض

فامّن الجميع على اقوالها وأُعجب صاحبنا المصري بدقة ملاحظتها وحسن ذوقها الفني

وحقيقة الامر ان هذا البلد جنيف مشرب بروح «كلفن» في بنائه وفي أخلاق سكانه. فانك ترى الشوارع نظيفة ووجوه السكان نساءً ورجالاً واولاداً نظيفة ايضاً ولكنك لا تلمح اثراً للروح الخفيفة لا هنا ولا هناك. ومميزتهُ انهُ يكاد يكون اثراً من آثار كرام الفرباء. فترى هذا الشارع قد مدهُ المحسن الانكليزي، وهذه الكنيسة قد اقامها الامير الروسي، وتلك الدار احداها الى مجلس البلدية الكونت النمساوي فتشتاق لرؤية شيء مما قام به الجنيفيون انفسهم فترى تمثالاً لقائد عظيم عندهم — وقد غاب اسمهُ عن الذهن — يمتطي جواداً اشبه بالبرذون منهُ بحيوان آخر. فسأل الرفاق عن هذا البطل وفيم اقيم لهُ هذا الاثر. فقيل لهم انهُ فاز في معركة من المعارك التاريخية العظمى. قالوا وما هي. فاجيبوا: انهُ يمكن ان يمنع وقوع الحرب بين مقاطعتين سويسريتين. فحمدوا الله وقفلوا راجعين الى شرب القهوة

***

وكان المطر رذاذاً ثم اشتد ومنع القوم من الخروج الاّ صاحبنا المصري فانهُ ترك رفقاءهُ جلوساً في داخل القهوة وهرول تحت مظلة تقيه المطر الى حيث تجتمع جمعية الامم

ولم يكن يحمل « تذكرة » تخوله حق الدخول ولكنهُ قال : هأنذا غريب عنا فالي لا اقف موقف العامة اترى هؤلاء الاقطاب يدخلون ويخرجون . لا لانهُ يجهل حقيقة ما يكون عليهِ هذا الشيء الذي يسمونهُ « رجلاً مشهوراً » ولكنها رغبة في الاستطلاع وميل الى رؤية الجديد المجهول ومقارنتهِ بما يعرف في بلدهِ من القديم المعلوم

وطال بهِ الوقوف تحت وابل من المطر وهو لولا ما تقدم ذكرهُ لما وقف وقفتهُ هذه ولو أُعطي مال قارون

واشدّ ما كانت رغبتهُ تتجه اليهِ رؤية تشرلين وبريان ولا بأس ان رأى شتريزمان عرضاً

فكان يترقب مرورهم واثقاً من تعرّفهم لكثرة ما شاهد من صورهم في الجرائد . ولان السيارات التي تنقل الاعضاء تحمل راية الدولة التي ينتمي الجالس اليها

فرت طائفة لا تحصى من المندوبين عن هذه الجمهوريات الاميركية الجنوبية — وتراهم اشد الناس فرحاً بعضويتهم فيدخل واحدهم يصحبهُ ستة او سبعة من المساعدين ولا يلبث ان يخرج ثم يدخل وهكذا كأنهُ يعرض نفسهُ على الناس

ومرت طوائف اخرى من ممثلي دول أوربا الصغيرة وكلهم متشابهون فلا تكاد تميز اليوناني عن الروماني او عن السرفي وتجمع هؤلاء كلهم جامعة الغرور فترى هذه العاطفة ماثلة في مشيتهم وفي ملبسهم وفي اشغال سيجاراتهم كأن ابن آدم اذا حرمهُ الله العظمة في النفس استبدل بها عظمة من عنده لا تخرج عن عجرفة وتصعير خدّ ومشية المرح

ثم اذن الله فقالوا : هذا سكرتير بريان قدم يأخذ معلمهُ . فخرج بريان فما رأى صاحبنا رجلاً أكثر منهُ سذاجة منظر وبراءة يميل الى القصر متحني الكتف تحير الرقبة كبير الرأس وكبير الشاربين يطلقهما على هواهما

يرتدي بذلة عمرها سنوات وسيجارتهُ مشعلة ابداً يلف تبغها بيده . ولكنهُ ذو جاذبية باطنية وذو هيبة لعدم اكتراثهِ تشعر انك ترى رجلاً عرف حقيقة الحياة فان هذا الرجل يمشي والناس من حولهِ الوف فتراهُ لا يلتفت ولا يأبه اذا حُيّي حيّ لا هاشاً ولا باشاً كأنهُ وحدهُ في وسط الجماهير فتذكر صاحبنا المصري درساً كان يسمعهُ من استاذ الالقاء والخطابة في المدرسة

فان هذا الاستاذ — رحمهُ الله — كان يقول للطلبة . اذا وقفتم تلقون ارتخطبون فلا تضطربوا ولا تجزعوا . اعتبروا هذه الرؤوس البشرية امامكم رؤوساً من الكرنب او اللفت فبمن تحسبون لها حساباً؟

وانهُ من الصعب جداً ان يلقى الانسان رجلاً يحفظ هذا الدرس كالسير بريان ولعل السرّ في كونهِ من اعظم خطباء العالم يرجع الى تمرسهِ بهذه الرؤوس حتى تساوت عندهُ سواء اكانت في البرلمان ام في صحن « السلطة »

ثم خرج اوستن تشمبرلن . فلما رآهُ صاحبنا المصري تذكر وجهاً كوجههِ ما عدا هذه الزجاجة المفردة على عين واحدة — ذلك وجه المستر برسيفال المستشار القضائي في وزارة الحقانية

وتشمبرلن هذا يجمعهُ قولك : رجل متأنق : متأنق من رأسهِ الى اخمص قدميهِ شعرهُ مرتب مصقول . وجههُ حليق احمر . هندامهُ كأن يد الكاوي لا تفارق ثيابهُ . يجلس في السيارة يطه ويشعل سيجارتهُ يطه ويضعها بين اصابع يدهِ يطه ثم ينقلها الى فمهِ يطه

وهو داعماً تصحبهُ سيدة نارة تجوز الخمسين واخرى شابة غير حسناء على ان ارستوقراطيتهُ ممزوجة بكثير من سلاح الرجل الطيب المستتيم

واشتد المطر وكان التعب قد اضنى صاحبنا فهرول راجعاً الى رفقائه يقص عليهم قصة ما رأت عيناهُ . وجلسوا يتناولون الغذاء وهمهم منصرف الى مشكلة الحصول على تذاكر تخولهم حق مشاهدة جلسة من جلسات جمعية الامم

***

يندر ان تجلس في مكان عام في جنيف ولا تسمع العربية

ولكن هذه القهوة امتازت بان كان صاحبنا المصري يسمع لغته من كل زاوية من زواياها وخيل اليهِ انهُ يسمع صوتاً يعرفهُ فالتفت فاكذب حدسهُ اذ رأى صديقاً عزيزاً هو اميل زيدان فقام اليهِ يحييه بشوق ويحيي زوجه السيدة كاملة الهذيب ومعهما الصحافي المعروف اميل الخوري والسياسي السوري احسان الجابري فكان لهم الفضل كل الفضل — لا في اللقاء بين الاصدقاء في دار الغربة فحسب بل لانهم اسرعوا فاتوا لهُ ولقرم بتذاكر الدخول في تلك الساعة الى جلسة جمعية الامم

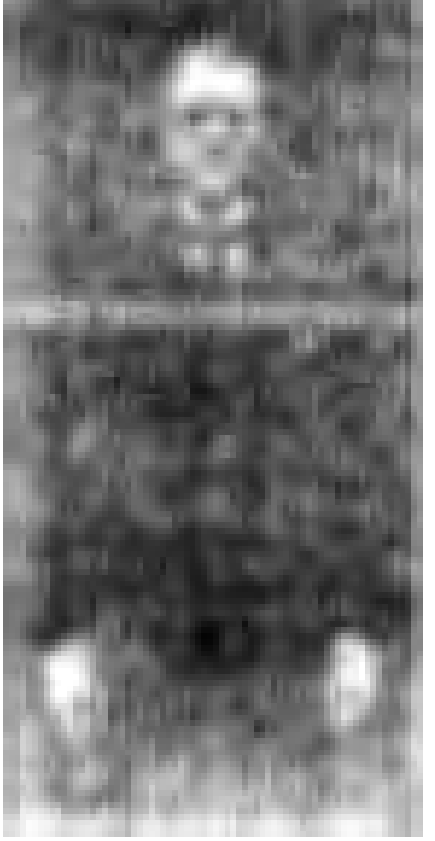

الملك شيرزمان

امام الصفحة ٣٠١

مفتتاح مارس ١٩٢٨

أوستن تشمبرلين

فقام الجمع كله يؤمون تلك الدار

ليس لجمعية الامم مقر خاص بها الآن فالدار التي ستقام لها لم يشرع في بنائها بعد فهي لذلك تجتمع في الدار التي اجتمع فيها اهل سويسرا واعلنوا ميثاق دخولهم في مذهب كلفن وجماعته

وطلاب حضور جلسات الجمعية لا يعدّون ولا يحصون فكأنك في برج بابل تسمع كل الالسنة وتشاهد كل الوجوه

فأدخل اصحابنا من الباب المعد لهم وصعدوا الى شرفات القاعة وتبوأوا امكنتهم وعلى الحائط اعلان بالسكون التام عند ما يفتح الرئيس الجلسة

جلسوا وكلهم اعين تنظر الى اعضاء جمعية الامم يدخلون اعضاء كل دولة الى مقاعد أُعدت لها لا تتغير عدداً او مكاناً

فكان يقول قائل: ها ايطاليا وهذا السنيور شالويا وصحبه. وآخر: ها رومانيا. وآخر: انظر الى الصينيين يدخلون

وما استوقف نظر صاحبنا المصري الا ثلاثة دخلوا الواحد وراء الآخر — سمر الوجوه باحمرار قليل جعد الشعر فاحمهُ فسأل فقيل تمثلو الحبشة . كانوا يسرعون الخطى مطرقين يحكون رؤوسهم بايديهم . فقال في نفسه: بماذا اشبههم . انهم يشبهون ولداً صغيراً دعاهُ ابوهُ الى قاعة استقبال ضيوفه فانطرق خجلاً ومدّ يده عن غير قصد يحك رأسهُ ليخفي حياءهُ . ام لعلّ لحنّة هذه الرؤوس سبباً آخر . فقد يكون رمزاً الى انهم يدعون رؤوساً في بلادهم او دليلاً على حشرات تقطن تلك الناحية من اجسادهم

ودخل تشمبرلين تصحبهُ سيدة عجوز وجلس مكانهُ . ودخل الالمان وكانوا اربعة يرأسهم شترزمان وانك لتنظر الى ثالث الاعضاء فلا يلفت نظرك الا هؤلاء الاربعة القرع الطوال جلوس لا يتحركون ولا يلتفتون عنة او يسرة

وجاء بريان ومعهُ بول بونكور المحامي والنائب الاشتراكي ذو المستقبل المجيد وآخر غاب عن الذهن اسمهُ كان مرشحاً من بضع سنين لرآسة الجمهورية فكانت جناحة التمثيل الفرنساوي والانكليزي والالماني قبلة انظار الناس . وما عداهم فصغار لم يعبأ بهم احد

اما رئيس الجمعية فمثل جمهورية من جمهوريات اميركا الجنوبية وسيان لديك كانت جواتمالا او شيلي او هندوراس . ومقعده على منصة عالية والى يمينه السكرتير الدائم للجمعية وهو انكليزي — السير أرك درمند — يحيط بهم زمرة من الكتبة غير قليل عددهم

وقرع الرئيس الجرس وأقفلت الابواب وقال شيئاً بالفرنساوية لم نسمعهُ واعاده السكرتير الدائم بالانكليزية فاذا به يقدم للجمعية مندوب جمهورية اميركية جنوبية يلقي خطاباً موضوعهُ (وجوب تقنين الشرائع الدولية) اسوة بالشرائع المدنية والجنائية

فقام الرجل يقرأ من ورقة كلاماً قيل انهُ افرنسيًّا بصوت خافت ولهجة عملة ونطق شنيع . واطال في الكلام واطال ، فكنت ترى الجمهور — جمهور الزائرين — يكاد يجنّ . اما الاعضاء الرسميون فكأن على رؤوسهم الطير . الاّ بعض مراسلات يتبادلها تشمبرلين مع بريان بوريقات كان يرسلها احدهم الى الآخر

فلمن اصحابنا ساعتهم وقالوا جئنا مؤملين ان نسمع بريان يخطب او مندوب بولونيا يشكو فيشتبك الجدال بين تشمبرلن وشتريزمان او تنظر مشهداً روائيًّا آخر مما يلذ للعين وللاذن فاذا بنا وكأنا في غيابة السجن

فقد كان السعد تامًّا والقوم محظوظين لو رأوا بريان يصعد المنبر فيبدأ الكلام بصوته الرنان ويأخذ بمجامع القلوب اذ يحلّق في سماء الخيال ببيان بليغ عن الانسانية والسلام والتآخي فيخيل الى السامع انهُ يجري في اللحاق وراء ملاك طائر في الفضاء لولا رؤيته امامهُ رجلاً يكاد ثقل بطونهُ يهوي الى الارض من قدميه وتكاد قيصه تفرّ من ذراعيه

على انهُ قدر لاصحابنا ألاّ تتم لهم السعادة كلها فهموا بالخروج فمنعهم الحاجب وقال : لا حتى ينتهي الخطيب وكانوا يتملقونهُ ويرجونهُ هامسين ويشرحون لهُ انهُ صعوبة حالهم وان عليهم ان يلحقوا بالقطار المسافر الساعة حتى رقّ قلبهُ ففتح الباب فخرجوا غير مودعين الاصحاب الذين مكنوهم من الدخول — وهكذا دخلوا جنيف ودخلوا جمعية الامم مستعطفين سائلين وخرجوا منها مستعطفين سائلين

سامي الجريديني

—٥٠٥—